في ربيع اليأس

لبنين الريحاني

اليأس ، مثل كل حس بشري ، يتنوع ويتفاوت في الناس . فقد ييأس الفلاح مثلاً من جفاف في الطقس حرق زرعه ، او من وباء ذهب بمواشيه . وقد ييأس الفيلسوف من نظرية يعالجها لاستئصال الوباء ، او من آلة يخترعها للسيطرة على الجو والمطر . وكذلك يختلف يأس الشاعر عن يأس البقال . وكذلك قل في يأس المجرمين ويأس الانبياء ، اي في ما تحت وما فوق يأس جميع الناس

اعود بك الى امثلة من اليأس الاعلى الذي لا يزال نوره يشع في العالم ، الى المسيح في الجثمانية ، والنبي محمد في الكهف ، والرسول بولس في مركب تتقاذفه الامواج ، والشاعر دانته في المنفى شريداً طريداً ، وابي العلاء المعري في محبسيه — فهل كان يأس هؤلاء ، يا ترى ، مثل يأس جيرانهم الفلاحين والنوتيين والعشارين او مثل يأس زملائهم الادباء والشعراء ؟

وهل يأس الاديب الشاعر الذي ينتهي في قصيدة ينظمها ، او تنقيد اشواقه اليوم بتقريظ في جريدة ، او بعشاء على مائدة امير ، او بنظر في حفلة راقصة ، مثل يأس من له سلّم لواحي من الاشواق والآمال ؟

قد يكون الجوهر واحداً . ولكن الكمية ، واللون ، والهيئة ، وما يتصل بالهيئة من سابق ولاحق في الحياة ، تختلف كلها اختلاف الآمال والاشواق في الناس ، واختلاف الثروة الروحية في الافذاذ من الناس

***

كان ليأسي شتاء ، وكنت فيه الاديب المجاهد في سبيل — المجد !

ألا في سبيل المجد ما انا فاعلُ ...

وكنت بين كتبي واوراقي وصوري وتمني النفس كالقائد لجيش عاصٍ متمرد . وما الفائدة من السلاح والذخيرة — من القلم والافكار ، ومن العلوم كلها ؟

ماذا تفيدك الرياضيات وانت لا تدري في اية دورة من الفلك تسل النجدة ؟ ولا حرب بلا مال . وماذا تنفعك الفيزيولوجيا وانت لا تستطيع ان تصلح قلبك المكسور او قلب المحبوب القاسي ؟ وماذا تفيدك معرفة البلدان وانت عاجز عن السفر الى حيث تخف تكاليف الحياة وتنعم جنباتها ؟ وماذا تنفع الفلسفة وانت في لجج الاحزان من اضعف الناس ؟ وما الفائدة في الطب وشرايين قلبك تزداد تصلباً يوماً فيوماً ، او المكروب يفتك برئتيك ؟ وما نفع الفنون الجميلة كلها والعالم كله في نظرك هو لوحة تصير في مدرسة الفنون العليا ؟

كان ليأسي شتاء ، وكنت فيه الاديب العالم المجاهد في سبيل — المجد والشهرة ! ولكن ذلك اليأس فتح امامي باباً من ابواب الحياة كنت اجهلها

خرجت ذات يوم من بيتي ، من غرفتي التي كنت فيها اعز عزيز لديّ . بل خرجت من الغرفة ليلاً لاني لم أطق ان ارى ما كنت اتخيله امامي : تابوت احلامي ، فررت منه في ليلة عاصفة . وكان الثلج يتساقط عليّ ، ويتراكم تحت قدميّ ، ويتجمد ألماً بين جنبيّ . وكنت ، لستاره الكثيف والرياح التي انحت تحتها رفيقي ، لا ارى غير موطىء قدمي . فتصادمتُ في تلك الساعة وشخصاً آخر حاله في العاصفة مثل حالي ، فاعتذرت . وكان الصوت الآخر المعتذر صوتاً ناعماً رقيقاً ، انقطع مرتين في كلمتين : « لا تؤاخذني» . هو صوت فتاة بائسة شريدة ... جمع الثلج والليل بيننا ، وربطت العاصفة قلبينا ...

سرت بها الى بيتي ، الى غرفتي التي تركت فيها تابوت احلامي . واجلستها بين كتبي وادواتي وصوري الفنية والتذكارية . فقالت فوراً . ليتها تؤكل ! فاخرجت كل ما في الخزانة الصغيرة ، فأكلت وهي لاتزال ترتعش من البرد . فشببتُ النار ، ولم يكن عندي ما يكفي من الفحم فأشعلت سفراً من الاسفار

وانساني لهيب تلك الصفحات احلامي . وانستني البائسة الشريدة الضالة المنشودة . فلله من الحياة ! أتمثل هذا البؤس وهذه الآلام تكون ، وانا وامثالي ، بين الكتب والاوراق والالاعيب الفنية ، نشيد الشهرة والمجد ، ونود ان نحرق المدينة ، ونعزف بالناي مثل نيرون فوق طلولها ، لانها لا تؤاتينا ولا تفتح لنا ابواب قصورها ؟

كنت والبائسة تلك الليلة كآدم وحواء — آدم وحواء لا في الفردوس ، بل في الجحيم . وفي تلك الليلة تحول يأسي ، وتضاعفت احزاني . لم افكر بعد ذلك بضالتي المنشودة ، وامحى من مخيلتي رسم تابوتها . بيد اني انتقلت الى الحياة الكبرى التي تتبارى فيها المحاسن والمآثم ، واللذات والآلام . فلله من نير الحياة الذي يقرن العقم بالفضيلة والبؤس بالجمال

تحول يأسي كما تتحول الدودة فتصير فراشة . فوددت لو كان في امكاني ان أخرج حواء وآدمها — كلّ امرأة وكلّ رجل — من جحيم هذا الزمان ، وأعود بهما الى الفردوس الاول . هيهات

هيهات ! وكان هذا اليأس في قلبي احرّ من نار الجحيم ، وآلم من كل ما قاسيته من الآلام . فلا عجب اذا فررت منهُ . ففررت هاربةً من آدم وحواء في الجحيم . هربت من المدنية ، ومن المدينة — جحيمها

***

هربت الى البادية ، فنسيت آدم ، ونسيت حواء ، ونسيت الجحيم . وكانت سنة من السياحة فيها من الابتهاج مثلما فيها من الحرمان ومن المشقات . وكيف يكون ابتهاجٌ مع مشقة ، وكيف يلتئم الحبور والحرمان ؟ !

ليس من شأني التلاعب بالكلام والافكار . وانهُ ليؤلمني ان اترك القارىء مخدوعاً بكلمة واحدة من كلماتي ، كما اني لا اطيق مخادعة النفس

كنت قبل الفرار الى البادية في شتاء اليأس ، بل في باب الربيع منهُ . ولكني لضعف روحي او ادبي ، او اجتماعي — وقد يكون الضعف في الثلاثة — لم اثبت في الجهاد . فتقهقرت ، ثم عدت ادراجي الى الشرق ، الى البادية العربية . فكنت فيها مغتبطاً على ما قاسيت ، محبوراً على ما حُرمت

وكيف ذلك ؟ رأيتني في البادية امشي في ظل الشهرة التي طاردتها في المدينة ، ورأيتني محفوفاً بالتجلة والاكرام ، ورأيتني مستمتعاً بما كنت اتوق اليه — بالمجد — قبل ان امّحي من مخيلتي تابوته ، وقبل ان اجتمعت بحواء في الجحيم

اذاً ، في فراري الى البادية عدت الى الوراء ؟ اذا ما نظرنا في الامر نظرة سطحية اقول : نعم . عدت الى الوراء سنة واحدة . وكان من العلم ، ومن الخدمة لقومي ، ومن معرفة الله في تلك الدهناء وتلكم النفود ، ما يبرر هذه السنة التي تتخلل اليأسين ، يأس الشتاء ، ويأس الربيع

***

ايها القارىء العزيز — وما انت بعزيز اذا كنت لا تتفهم كل كلمة اقولها ، وما انا برسول الحقيقة والخير اليك اذا كنتُ لا اتحرى الصراحة والصدق دائماً في كل ما اقول . تراني لذلك افتح كتاب النفس لاطلعك على صفحة من صفحاته الشخصية الخصوصية . وقد ادركتُ السر في ابتهاجي في البادية ، وستدرك المعنى كله في عنوان مقالي هذا ، فلا تنهني بعد ذلك بالتلاعب بالاحساسات والالفاظ

سنة في البادية انتهت بعزلة في الجبل ، ولكنها عزلة جثمانية فقط . فهناك الكتب والاوراق والاسلاك الفنية تشاركني في هذه العزلة . وهناك الجرائد والمجلات تحمل اليّ اخبار العالم وأنباء الحياة في العالم

العالم الذي فررت منهُ هارباً والحياة التي نبذتها ! ترى الاول يجالسني كلما جلست استريح ، فيحدثني وهو يبسم بسمة جنية فظيعة . وترى الثانية تحييني سامرة ، فتثرثر وهي تقهقه قهقهة الفجرة

العالم يقطع عليّ العزلة ليقول : وما الحق لغير القوة . وما الرجال بغير المال . وما الانتداب غير نوع جديد من الاستعمار . وما الالف والباء والجيم منه غير درجات في الظلم والاستبداد . وهذا حقٌّ ما زال الحق للقوة . خلق الضعيف لخدمة القوي . والضعيف من الامم والشعوب ، مثل الضعيف في الناس قسطه النير

وها كم قويًّا في العالم الجديد يسيطر على اقوياء العالم القديم . يسيطر بالمال ، بالذهب . وها كم في الشرق الاقصى دولة تقلد دول الغرب بما يردّ مصلحو هذا الزمان تطهير الغرب منه — بالقوة المادية وانشره الاستعماري . وها كم الشرق الصيني يثن بين براثن الحرب الاهلية التي تغذيها مرًّا دول الغرب . وها كم الشرق الهندي وفيه الاسد والفيل يتنازعان الملك ويتصارعان . والى شمال ذاك الشرق دولة تشرئب بعنقها الى الغرب وتود ان يكون لها في جوار الهند ما لليابان في جوار الصين

وها كم في الشرق الادنى طرٌّ في الحقيقة « ان الحق للقوة » : ففي انقرة تخط الحقيقة بأحرفها الكاملة وتلفظها : جمهورية كمالية . وفي طهران تخطها يماء الذهب بالحرف الفارسي وتلفظها : مملكة رضوية . وفي نجد والحجاز تخطها على الرمال بالاحدب البتار فتمحيها الرياح وهي تردد اسم ابن سعود . وفي الشرق العربي لا تكاد تخطها حتى يمحوها ببصره الخنوع ويكتب مكانها : تحيي بريطانية العظمى ! وهذه بريطانية العظمى بعد ان استعادت شيئاً من العزلة التي فقدتها في الحرب الكونية ، تقلد الطائع في الشرق العربي نيشاناً ، وتهدد بالمدرعات والطيارات ، السيادة الوطنية ، والحرية القومية في وادي النيل وفي فلسطين

وفي هذه البلاد السورية كُتبت الحقيقة بعشر لغات — لغات الطرائف — فكان للدولة المنتدبة فيها عشر قراءات مختلفات بعضها عن بعض ، وكلها تعود الى مصدر واحد : الحقّ للقوة

***

بذا يحدثني العالم وهو يبتسم بسمته الخبيثة المؤلمة . والحياة تقطع عليّ عزلتي متجيء سامرة وتقول : انما الحق لمن يحسن الرثاء ، والقوة لمن يبرع في المداجاة . الحق والقوة والوجاهة والثروة والسيادة كلها للأمّعيين . لاولئك الذين يقفون مطأطئي الرؤوس امام كل كبير من السادة الزعماء ، وأمام كل من وقف حولهم في ظلال السلطات الثلاث ، المدنية والدينية والمالية

الحق والقوة والوجاهة والثروة والسيادة لمن يقول ! نعم ، نعم ، على الدوام . ذلك ان القوة الايجابية في الحياة هي القوة الغالبة . ولا يقول لا ، لا : غير المصابين بعسر الهضم ، والمجانين ، والانبياء . اتبغي المال والرفاه ، والترف والجاه ؟ نعم ، نعم . أتبغي السيادة والقوة والمجد ؟ نعم ،

نعم . سيّارة تتصدر فيها ؟ نعم . عصاً من الذهب وثوباً من الارجوان ؟ نعم ، نعم . عضوية في المجمع العلمي ، او رآسة في البلدية ، او في الرابطة الادبية ؟ نعم ، سيدي نعم . . . وفساطين يا سيدتي من باريس ؟ نعم ، نعم . وأميراً صاحب كيس ؟ كيف لا . والحب لا بيس ؟ نعم ، لا بيس . . . هي ذي الحياة ، حياة كل يوم ، تجيئني في الجرائد ، وهي تتزين وتتهتك ، ثم تختفي وهي ترقص الرقصة الجديدة

فاخرج من المنزل لأستنشق الهواء النقي ولأحدث النجوم . وكأني بها ، وهي تدور في افلاكها تذكّر بمن وقف تحتها في غابر الزمان من الانبياء والعلماء ، وهي تقول : نعم ، نعم ، لكل ما قالوه

***

وهل من حاجة الى ان اردد على مسمع القارىء ما قاله الانبياء ؟ فقد بدأ احدهم وصاياه ب « لا ، لا » . ووقف احدهم امام عروش الظلم وقال : « لا ! » لاربابها . ومشى الآخر مع الفقراء وذوي القلب الوديع فقال لهم مراراً : انا هو خبز الحياة . ومن اضاع حياته من اجلي يجدها . واوصى الآخر بالامر بالمعروف وبالنهي عن المنكر . وقالوا كلهم بالحب ، والسلام ، والاخاء الانساني . وجميعهم بشّروا من الانسان

— ووقف الانبياء في ربيع اليأس فصرخوا من اعماق قلوبهم قائلين : سمع الانسان كلمة الله وظلّ عتيًّا . وآمن الانسان وظلّ ضالاً . ومشى الانسان على الاثنتين وهو لا يزال في كثير من صفاته مثل ذوي الاربع . وعلمناه التوحيد وهو لا يزال يقول : موسى وعيسى ومحمد وبوذا وازدرشت . وعلمناه المحبة وهو لا يزال يصنع القنابل والمدافع والبارود . وعلمناه الرحمة والعدل وهو لا يزال في سبيل شهواته ، يمشي على القلوب البشرية الدامية ، ولا يزال ، في سبيل مطامعه ، اما ضبعاً او ثعلباً

ونفض الانبياء ايديهم من الانسان . ولكن صرخات اليأس ، يأسهم ، سمعتها القرون ، ورددتها الاجيال . رددها في كل جيل افراد من الناس ، من اولئك الذين يعطون حياتهم ليجدوها ، وكان لترددهم فترات من تجديد الصلاح في الناس . وكان لتجديد الصلاح ، ازدياد في صفوف من يقولون : « لا ! » ومن يؤمنون في قلوبهم ، وفي اعمالهم . ولذلك ترى الواحة في بيداء الحياة تزداد اخضراراً وتتسع كل مائة من السنين

***

كذلك يزهر يأس الانبياء وانا المقيم في هذا الوادي ، في هذا الزمان ، زهرة من يأس الانبياء

زهرة نوّرت ، فذوت ، فتناثرت اوراقها ثم انتشرت من قلبها بذور الحياة ، فحملتها الرياح في النواحي الاربع من الارض

***

زهرة من يأس الانبياء غدت بستاناً ، واضحى البستان ربيعاً ، وكان الربيع صوت ، هو الذي تسمع الآن ! هو صوت صاعد من ربيع اليأس

— لله من ظلم يتجدد في حكومات العالم الحرة . لله من شعوب تنفر الى الماضي لتتمس من عظام الاموات شيئاً من الحياة . لله من حياة تزداد اعباؤها كلما ازداد الانسان علماً ونوراً . لله من شعوب في هذا الشرق يرددون كلمات التوحيد وهم في الشرك يعمهون ، وفي الشقاق يهلكون

ان في السماء الهاً واحداً وان تعددت اسماؤه . وان على الارض لناموسه ، مظاهر ، تتجسم كل جيل في افراد من الناس ، فيثيرون جادة من جادات الروح ، ويفتحون باباً من ابواب الخلاص — الرقي — للامم

ثم ازهار ذلك الربيع ، ربيع يأس الانبياء . ولهم يومهم ، ولهم عملهم ، ولهم يأسهم المزهر المنير . لولا ذلك ليئسنا حتى من الله . ولكنا من المؤمنين الذين لا يؤمنون بسواه

***

ان يأسي لفي ربيعه ، وان في هذا الربيع لكل امة من الامم ، ولكل شعب من الشعوب ، زهرة طيبة الأريج

ولكني وان قالت أمي : العذراء ، اقول : الله

وان قال اخواني في الغرب : المسيح ، اقول : الله

وان قال اخواني في الشرق : بوذا ، اقول : الله

وان قال اخواني العرب : محمد ، اقول : الله

وان قال اخي الفارسي : آهورا ، اقول : الله

وان قال اخي الصيني : كنفوشيوس ، اقول : الله

وان صوتي ، وان كان من اصوات اليأس ، لمن أصوات الله

ولولا هذه الاصوات ، المرسلة من اليأس أشعةً وحياةً لتجديد الامل والجهاد ، لما مشت الاجيال الى المحجة العليا ، ولما اتسع اخضرار الواحة في البادية ، كل مائة من السنين

الفريكة — لبنان